

الأمة الإسلامية بين واقع الركود الحضاري ومآزق الاختراق الغربي

## The Islamic Ummah, between the realities of civilizational stagnation and the Western hacking prenentration

دليلة بن كوسة\*

### Abstract:

The Islamic Ummah is suffering from a long period of civilizational stagnation, depleting the energies and resources of the Islamic lands, in light of the sweeping and dazzling western penetration of its various facets, the nation's stupidity between the tribes in backwardness or the cultural integration which it sees as very far-reaching, Which led to the study of this study in order to seek a way to save from the repercussions of the current situation between the two strata of civilizational stagnation and civilizational decay by creating a path towards enlightenment and civilizational witnesses of the Islamic Ummah because of its potential for the advancement of civilization.

**Key words:** The Islamic Ummah- The civilizational stagnation – Western penetration - Civilizational witness

### ملخص:

تعاني الأمة الإسلامية من حالة ركود حضاري طال أمدوها، سامها التخلف فاستنزفت الطاقات والثروات واستئبحت الأراضي الإسلامية، في ظل اختراق غربي كاسح ومبهر تعددت أوجهه، فتاهت الأمة بين القبوع في التخلف أو الالتحاق بالركب الحضاري الغربي، والذي تراه شديد البعد عن مرآها، في الوقت الذي تهدد فيه العولمة الغربية بتجزئ كيانها وتقطيع أوصالها وتفتيت أمصارها، بينما يتجه العالم الغربي فيه نحو التكتل والتكامل والاندماج، وهو ما دفع بالخوض في هذه الدراسة من أجل التماس مخرج في سبيل الخلاص من تداعيات الوضع الراهن الذي حُصر بين ثنائيات عدة أبرزها متلازمي الركود الحضاري والاستلاب الحضاري في ظل الاختراق الغربي، عبر محاولة شق درب نحو الانبعاث الحضاري للأمة الإسلامية نظرا لما تملكه من إمكانيات الهوض الحضاري يخول لها تحقيق ذلك.

الكلمات المفتاحية: الأمة الإسلامية \_ الركود الحضاري \_ الاختراق الغربي \_ الشهود الحضاري.

\* أستاذة مساعدة قسم أ بقسم العلوم السياسية، كلية الحقوق بودواو، جامعة امحمد بوقرة – بومرداس.

## مقدمة:

يبدو العالم للمتاأمل في أحواله من الخارج أنه ينقسم إلى كيانين مختلفين، فيظهر الأول عالم متقدم منظم متطور على جميع الأصعدة، انتهج العلم طريقا له فتسارعت وتيرة تقدمه حتى صار قويا في جل المجالات الاقتصادية، السياسية، الثقافية وغيرها، والآخر متخلفا تعمه الفوضى والانحطاط في جميع أحواله عدى بعض مظاهر الحداثة الماثلة في التجهيزات المادية المقتناة من الغرب، والتي لا حول لها ولا قوة في تخطي تخلف الأذهان، وهي حال الأمة الإسلامية فرغم ما تملكه من مقومات وإمكانات بشرية ومادية وحتى قيمية وروحية، إلا أنها تريض قابعة وسط الانحطاط والركود، انجر عنه غيابا طويلا عن مسرح التاريخ الراهن للبشرية، بعدما كانت هي صانعة له، فاقترضت الطبيعة التي لا تأبى الفراغ أن تُعبأ من طرف الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية المهيمن حضاريا، والذي يحيك اللحظة الراهنة والمستقبلية وفق أسس علمية تعمل على خلق مبررات وجوده وتجديدها، لضمان استمرارية هيمنته على العالم وإحكام قبضته عليه، ومنع أي محاولة للهوض الحضاري التي قد تخل بموازن القوى العالمية، فتهدد كيانه سواء على المدى المنظور أو البعيد، فالغرب يعمل على بقائه قويا و / أو على إبقاء الآخر ضعيفا حتى تبقى الهوية متسعة كي يضمن استمرار ريادةته للسلام الحضاري العالمي، لذلك يحرص على تعميم أنماطه ومناهجه حتى يبقى النموذج الوحيد والمهيمن.

إن هذا الانحطاط الحضاري الداخلي، بالموازاة مع التهديد الغربي الخارجي الدائم بالاختراق والتغلغل في الداخل العربي والإسلامي الذي تعيشه الأمة فرض عليها ثنائيتين: إما الانعزال والاستمرار في حالة الركود الحضاري واندثارها، وإما الانفتاح نحو الاستلاب الحضاري الغربي وضمحلها في نموذج، وهذا الوضع المعقد والشائك يبعث على طرح التساؤل التالي:

" ما السبيل إلى تجاوز ثنائية الوضع الراهن للأمة الإسلامية والذي ينحصر بين واقع الركود الحضاري ومأزق الاختراق الحضاري الغربي؟ "

إن واقع الأمة الإسلامية الغائبة والمغيبية عن الشهود الحضاري تعصف به من كل جانب عوامل عدة، ففرضت عليها تراكمات التاريخ حتى في مستواها العالمي أن تسير بخطى حثيثة نحو مؤخرة الركب الحضاري بعدما أكملت دورة حضارتها، وهو ما يدفع إلى افتراض

أن استمرار حالة الفراغ الثقافي والركود الحضاري للأمة الإسلامية فتح المجال أمام قابلية اختراق الآخر الحضاري لها، وفرض نموذجها عليها وبالتالي تبعيتها له واضمحلالها ضمن سياقها.

## أولاً: الواقع الحضاري الحالي للأمة الإسلامية

يعتبر علماء الإناسة ( الأنثروبولوجيا ) أن حالة الركود الحضاري مرحلة من مراحل الدورة الحضارية والذي كان قد بينه قبل ذلك ابن خلدون حين حلل أوضاع العالم الإسلامي في عهده، ودرس أطوار تشكل الدولة ودور العصبية البداوة والحضارة في ذلك، منتبها إلى أن الحضارة هي القمة ومنها يبدأ الانحدار، وانتشار الترف مأذنة بخرابها وزوالها، وهو الأمر الذي خلص إليه المفكر مالك بن نبي في: "سلسلة مشكلات الحضارة" حينما شخص ظاهرة الحضارة وعناصرها الأساسية، وقد أصاب الحقيقة عندما قال بأن مشكلة العالم الإسلامي هي مشكلة حضارة، ذلك أن الأمة يسومها التخلف فكان لا بد من معالجتها بالتحضر<sup>1</sup>، وهي حالة طبيعية في دورة الحضارة بل هي مؤشرة على بداية الصعود مرة أخرى وفق مبررات وجود تُستشف من فاعلية الفكرة الدينية.

بالرجوع إلى التاريخ الحديث يتبدى للدارس أن الأمة الإسلامية قد استفاقت على وقع الصدمة الحضارية لما قدم الغرب إليها غازيا، وككل صدمة فإن لها أسباب ونتائج فمن أسبابها الجوهرية حالة التشرذم والركود الداخليين التي شهدتها العالم الإسلامي، فالاستكانة التي ركن إليها المسلمون ولدت حالة فراغ عُبي من طرف الغرب، مهدت له القابلية للاستعمار المكونة في نفوس الراكدين حضاريا<sup>2</sup> كما فسرها مالك بن نبي حيث جميع الظروف الاجتماعية التي تحوط الفرد تدل على هذه القابلية، وفي هذه الحالة يصبح الاحتلال الأجنبي استعمارا وقدرنا محتوما<sup>3</sup>، وهي العلاقة التي وصفها عبد الرحمن بن خلدون بمبدأ "المغلوب مولع بغالبه" ويتجلى ذلك في اقتدائه بالغالب في شعاره، أنظمتها، زيه، مظاهر حياته، نمط معيشتها، نحلته وسائر أحواله وعاداته، ذلك أن النفس تعتقد

<sup>1</sup> - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ترجمة: عمر مسقاوي، دار الفكر، بيروت 2000، ص 43.

<sup>2</sup> - مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986، ص 153.

<sup>3</sup> - مالك بن نبي، وجبة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، 2002، ص 138.

الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه فانتحلت مذاهبه وتشبهت به وذلك هو الاقتداء<sup>1</sup> والتبعية، فللناظر إلى الأحوال النفسية والاجتماعية للأمة الإسلامية يرى جليا مظاهر القابلية للاستعمار والتبعية فيما صارت عليه الأمة إما من رفض للآخر والتقوقع في الأصولية، أو إتباع واقتداء للغرب المتطور حضاريا، والسعي حثيثا نحو اقتناء منتجاته المادية والفكرية والعمل على استهلاكها دون محاولة محاكاتها وإنتاج مثلها، ودونما أدنى فكرة حول فوائد هذه المقتنيات من مضارها.

وبالرجوع إلى حال الأمة يتمظهر واقعها بذات مشتتة مثقلة بقابليات عديدة وسط محيط داخلي متخلف وآخر خارجي متطور، فالذات الحالية ألفت التخلف والفوضى فصارا السمة الغالبة لنمط معيشتها، حتى بات تطورها عكسيا نحو الخلف يتجلى في تطوير ظواهر ومظاهر التخلف وتجديد أساليبه كسمة عادية في تقدم المجتمع بطريقة رجعية، وسط فوضى عارمة صارت تمثل نمط نظامه، ورؤية ضبابية فقدت فيه نور نخبتها المثقفة التي تشتت بين رافض للآخر وتابع له، الآخر الحامل لمشعل الحضارة والمبهر لهذه الذات المحطمة بين أطلال ما اصطلاح عليه بالربيع العربي، والذي ولد دمارا حاق بالدول التي كان همُّ منتفضيها إسقاط النظام لا تغيير الواقع المتزدي نحو التحضر، ففقدت مشروع بناء الدولة بفقدانها للرؤية الإستراتيجية لبقاء الدولة، فسقطت بعض الشعوب العربية في دوامة العنف والتهيه وخطر انهيار الدولة وتدمير الأمة معا، فلم يتبق لهم إلا الركون إلى لم شتاتهم والبكاء ندما وأحيانا الحنين إلى ما كانوا عليه، وإيجاد سبيلهم عبر ما يفرضه عليهم الغرب من نماذج، ولعل العوملة هي آخر ما توصل إليه في تطوراتها، فمن أبرز الإشكاليات التي تعيق الأمة عن أداء وظيفتها الحضارية على مستوى الفكر والواقع التصارع بين غاية الآخر في إلغاء والقضاء على الأمة، وقدرتها على الاستجابة، غير أن الجهود تركز لعدم قدرة الأمة على فهم وظيفتها الحضارية في تبليغ رسالتها<sup>2</sup>، في ظل تجزئة فرضت عليها تاريخيا من الخارج.

1 - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تقديم: علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، د.م، 1966، ص 620.

2 - أماني غانم، الخريطة الإدراكية للنخب المسلمة لقضايا الأمة، في: ناية محود مصطفى وآخرون، النخب المسلمة وقضايا الأمة، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة دد، دت ت، ص 51.

لقد رأى "مالك بن نبي" أن من مظاهر التخلف والركود الحضاري على المستوى المحلي فقدان الأمة فعالية أفكارها التي تحكم شبكة العلاقات الاجتماعية ففقدت معها أداء نشاطها المشترك<sup>1</sup>، فاضطربت وتمزقت لتتشكل في مجرد تجمعات<sup>2</sup>، باعتبار أن هذه الشبكة هي التي تؤمن بقاء المجتمع وتحفظ له شخصيته، كما تنظم طاقته الحيوية لتتيح له أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ، فيكفي نشر الفوضى والاضطراب كي تتحطم الطاقة الحيوية وتهدم الشبكة<sup>3</sup>، والفوضى والاضطراب هي ظواهر ذات أساليب تتغذى بدورها من التجزئة والنزاعات والصراعات، كما تعمق الهيمنة والتبعية ففكروا واقعاً.

وبذلك غابت الأمة الإسلامية عن الأحداث العالمية كفاعل دولي، منذ سقوط الدولة العثمانية ككيان سياسي فبقي حضورها كأمة مهمشة ومستهدفة، وكثقافة يراد لها الاختزال والعزل فعانت وتعاني من التقزيم والتجسيم، كونها حية في وجدان الأفراد وفي صميم ذاكرة الأمة، وقابلة للتفعيل أنى توافرت الشروط، هذا الوضع خلق دافعا نحو تهميش الذات<sup>4</sup>، وهو ما أفرز لدى الأمة الإسلامية ذاتا مشتتة تائهة تعاني الضياع تحلم بتغيير واقعها ومضاهاة نظائرها من الأمم.

إن تعداد الأمة جاوز المليار نسمة تربع على مساحة تمتد من جاكارتا شرقا إلى طنجة غربا، وتتوغل من وسط آسيا شمالا إلى وسط إفريقيا جنوبا، وترتب على هذا الامتداد الكبير للعالم الإسلامي تعدد الأجناس واللغات، وتباين الثقافات والحضارات<sup>5</sup>، وامتلاك الإمكانيات المادية وتنوعها، غير أن الأمة الإسلامية تفتقر في غالبيتها لأدنى مؤشرات التنمية البشرية التي تقتضيها المقاييس العالمية، في نسب متفاوت بين منطقة وأخرى، مع وجود حالات شاذة حققت تقدما معتبرا، شعوب في غالبيتها بالتمتع في جودة حياتها- معلقة بالدخل الشهري الذي تتقاضاه عن أعمالها، تسعى لاهثة باحثة عن سد

<sup>1</sup> - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر العربي، دمشق، 1986 ص 38.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 29.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص ص 82-83.

<sup>4</sup> - محمد مزبان، التوفيق بين الموروث الحضاري والتطلعات المستقبلية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة "ندوات"، مستقبل الهوية المغربية أمام التحديات المعاصرة، ندوة " لجنة القيم الروحية والفكرية" التابعة لأكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1998، ص.ص 52\_53.

<sup>5</sup> - علي أحمد هارون، جغرافيا الدول الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة 2005، ص 27-28.

رمقها وتلبية حاجياتها الجسدية الفزيولوجية من مآكل وملبس ومبيت، ويؤرقها التفكير العميق في سبل تحقيق حاجياتها الاجتماعية، وبعضها يهرع هرباً كي لا تصيبه شظايا انفجار هنا أو هناك، نظراً لفقدان أدنى مؤشرات الأمن والاستقرار في بعض الدول، فلا يخطر ببال البحث عن الريادة الحضارية عالمياً، هو نمط معيشي لأمة تمتلك موقعا استراتيجيا وثروات بشرية ومادية في زمن يعد فيه الرأسمال البشري، الثروات المادية، الموقع الاستراتيجي والتجارة عصب الاقتصاد العالمي ومنيع الرفاه والثراء.

تعكس الصورة في ثناياها مظاهر التخلف في جوانبه المجتمعية التي إنبتت على تراكمات البؤس الاجتماعي الذي تولد جراء الاستغلال الاقتصادي الذي عرفته المنطقة على مر عقود من الزمن، وتبين في جوانبها السياسية علاقة السيد والمسود، فالأول يملك أدوات الإنتاج ويتحكم فيها ويسعى لتنمية ثروته، والثاني يعمل لديه لضمان سد الرمق وستر الجسد وإيجاد ركن يأوي إليه، غير أن الحالة الراهنة هي بشكل مموه، وبصورة مميعة ومتطورة، لا تعكس وضع أمة كانت صاحبة رسالة عالمية سامية وعلى عاتقها مسؤولية تبليغ الدعوة، فجعل همها الأعظم في سد حاجيات بطونها، أمة فاقدة لمبررات وجودها الجوهرية مكتفية بتلبية حاجياتها الجسدية، نالت قسطها من الغزو والاختراق والاستلاب، في زمن تأتي به العولة الغربية -بفرصها ومخاطرها- على الأخضر واليابس، فتخترق حتى الأسر في منازلها، وحتى الفرد في خلوته.

إن الاستغلال في مستوياته العالمية والوطنية كان عاملاً رئيساً في تفشي البؤس الاجتماعي، والذي اكتنفه الفراغ الثقافي، وسط أنظمة سياسية تتقن فن الاستبداد، وتلوح بالإصلاحات بين الفينة والأخرى، كي يبقى المجتمع أسير الحلم بغد أفضل، وأسباب ذلك عديدة، فصارت الأمة حاملة مفعول بها، رغم أنها كانت أمة فاعلة يقتدى بها، ومحركة لعجلة التاريخ بانجازاتها العلمية، وهذا الانقلاب في الدور مرده أن الأمة فقدت شروط تلاحمها ومبررات وجودها الجوهرية بفقدانها لوحدها المقدسة التي تستوجب الاتحاد في الشعور والفكر والثقافة والعقلية وحتى الهدف، فالأمة وإن كانت تتباين في بعض الجوانب تعبر عنها الوشائج الروحانية المعنوية لا الأبعاد الجغرافية المادية<sup>1</sup>، وما هو ظاهر للعيان في واقع العالم الإسلامي وما يحويه من صراعات ونزاعات حدودية، مذهبية، طائفية وعرقية

<sup>1</sup> - الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي، المجلد الثالث، تيزي وزو 22\_10 يوليو 1973، ص950.

يدل على تخلفها، فواقع العالم الإسلامي فيه ما يكفي من الأمثلة كالعراق، سوريا وغيرها، وما تتعرض إليه الأقليات المسلمة في شتى بقاع الأرض من تعدد، تنكيل، وتقتيل، وهو واقع الركود الحضاري الذي سامه التخلف والضعف.

### ثانياً: الغرب وأسلوب الاختراق

يمتاز العصر الحالي بسمات الترابط والتدويل، فالعالم صار شبكة متداخلة فتميز ما هو دولي عما هو محلي، أو ما هو داخلي عما هو خارجي يعد أمراً عسيراً، فالمتغيرات الداخلية تتفاعل مع المتغيرات الخارجية بل هي في تداخل متواصل في تشكيل توزيع القيم أو تحديد القرارات المتخذة، فما بين حدود النظام السياسي هي النشاطات والعمليات وليس الجوانب القانونية، فالاختراق من منظور جيمس روزينيو مرهون بمشاركة أطراف خارجية في صنع القرار داخل نظام سياسي معين، مع ضرورة التمييز بين المشاركة في شؤون متعددة أو في شأن واحد مما يحدد استمرارية الاختراق من انتهائه<sup>1</sup>، وقد رأى كارل براون في بداية سنوات الثمانينات باعتماد منظور روزينيو للنظم المخترقة، أن إقليم الشرق الأوسط هو الإقليم الأكثر اختراقاً بين النظم الإقليمية الأخرى، فقد حدد الاختراق بوجود طرف خارجي المقتصر على الدول الكبرى، يشارك بشكل مباشر في صنع القرار واتخاذها، وفي أبعاد متعددة ولفترة زمنية ممتدة.<sup>2</sup>

وفي العالم الإسلامي تزامنت التجزئة داخليا باختراق خارجي ضخم لشبكة العلاقات الإسلامية-الإسلامية، واقتربت بتغريب الأمة فانتهى فيه حالها من الشهود إلى المشهودية<sup>3</sup>، لقد كان للإشكاليات الداخلية الماثلة في: التجزئة، التخلف والتغريب دوراً في بروز الإشكاليات الخارجية الواضحة في التبعية والهيمنة، والمتجسدة في حالة الاختراق الغربي للعالم الإسلامي، لها تجلياتها في جميع المجالات، فتولدت عنها نظم سياسية استبدادية

<sup>1</sup> - James N.Rosenau, **The Scientific Study of Foreign Policy**, Rev. And enl. ed. (Frances Pinter; Nichols Pub. Co. London; New York, 1980), pp 136-139.

<sup>2</sup> - Carl Brown, **International Politics and the Middle East: Old Rules, Dangerous Game**, princeton studies on the Near East ( Princeton, NJ : Princeton University Press, 1984), pp . 3-5.

<sup>3</sup> - نادية محمود مصطفى، نحو مشروع للنهوض الحضاري من الفكر إلى الحركة، (في): مشروع النهوض الحضاري ونماذجه التطبيقية، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، منتدى النهضة والتواصل الحضاري الخرطوم،

الجزء الأول، 2011، ص ص 29-30.

متحالفة ومختزقة من طرف نظام عالمي ومؤسساته الدولية، فأجهزة الدولة ارتبطت بشبكة من العلاقات مع الدول الكبرى، والمنظمات الدولية ومؤسسات عابرة للقومية على حساب جزء من سيادة هذه الأجهزة في نطاق إقليمها، وهو ما أدى إلى إضعاف سلطة الدولة خارجياً واستقواءها داخلياً شددت بزمامها على مقاليد الحكم، وأسست لها نظاماً اقتصادياً استغلالياً خلق فئة قليلة فاحشة الثراء، وأخرى كثيرة يعقر الجوع بطون صغارها وينخر عظام كبارها، فساق بالأمة إلى أحضان البؤس الاجتماعي والفقر، في بيئة سادها الفراغ الثقافي وتنازع الفرق الدينية وشتاتها، وتفشي حالة لاوعي سامه فقدان الثقة بالذات وعدم القدرة على التحدي، في ظل النقص القيادي وقدرة القيادات الأجنبية على توظيف الحركات الإسلامية لصالح أهدافها الذاتية، فعجزت الأمة عن تحقيق وحدتها، في ظل غياب تنظيم دولي ثابت له صفة الديمقراطية والمؤسسية، ليعبر عن الإرادة الإسلامية، وغياب المؤسسات الإسلامية، وتغلغل المفاهيم الغربية في التعامل السياسي الذي كرس انقطاع علاقة استمرارية الفكر بين التراث الإسلامي والواقع المعاصر، لازمه عدم بناء فكر سياسي متكامل قادر على التعامل مع العالم المعاصر، حال دون خروج المجتمعات إلى الوظيفة الكفاحية.<sup>1</sup>

فالغرب يسعى سعياً حثيثاً نحو إبقاء زعامته الحضارية على العالم بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ويعمل جاهداً على إجهاض أية محاولة أو حتى فكرة تسلق السلم الحضاري من طرف الآخر، خاصة ما اصطلح عليه في أطروحة صدام الحضارات بالخطر الأخضر. وهم المسلمون. منتهجاً جل الأساليب والطرق الاختراقية التي تحفظ له مكانته ومصالحه، وللإختراق مؤشرات عدة تتمثل في الفضاءات التي يشملها، فقد يكون اختراق السلطة من خلال المستشار الخارجي، وقد يمس المجتمع باستخدام التسميم السياسي، أو ارتباط قوى سياسية معينة بقوى خارجية تتحكم بقرارها، وقد يشمل النخبة فتتبنى النخب الداخلية أهداف النخب الخارجية التي تمارس الاختراق<sup>2</sup>، وعملية قياسه صعبة لا تتم إلا عبر دراسات دقيقة ومعقدة، وبعدد من المؤشرات المحددة، ويرصد لمصادره.

<sup>1</sup> - أماني غانم، مرجع سابق، ص 52.

<sup>2</sup> - وليد عبد الحي، النظام الإقليمي العربي استراتيجيات الاختراق وإعادة التشكل، في: أحمد سعيد نوفل وآخرون، التديعات الجيوسياسية للثورات العربية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، فبراير 2014، ص

ويمكن إبراز أسلوبين رئيسيين في تعامل الغرب مع الأمة الإسلامية وهما أسلوب الاختراق الخشن عن طريق الاجتياح العسكري الذي يعد تدميرا مباشرا وشاملا باستخدام القوة والاحتلال عن طريق القوة الأمنية والعسكرية، وأسلوب الاختراق الناعم عن طريق الفكر الذي يعمل على ضرب القيم الجوهرية الأصيلة للمجتمعات الإسلامية وإفراغها من محتواها، أما من حيث المستويات فهناك اختراق محلي، اختراق إقليمي، واختراق دولي، فالتاريخ يبرز على امتداد مراحل ما كان للاستعمار قديما من إهلاك للحرث والنسل، وما له اليوم من تدمير للعقول والنفسيات، فالعقل المظلل والنفس المحطمة الماثلة على محيا التذمر الشعبي لا يمكن لهما استحداث مبررات وجود وبعث حضارة جديدة أو متجددة.

لقد استمر الاختراق في المنطقة العربية والإسلامية، بعدما كان بدعوى نشر الحضارة والرفق، وبعدها أحرزت الثورات التحريرية استقلال شعوبها، صار حربا على الإرهاب ودفاعا عن السلام والأمن العالمي بدعوى العيش بسلام، فشنّت الحرب على أفغانستان والعراق سنة 2003 على خلفية هجوم الحادي عشر من سبتمبر لسنة 2001، فكانت الحرب للقضاء على منابع الإرهاب العالمي، وبدعوى القضاء على تنظيم القاعدة، وهي حرب لم يراع فيها العزل، استغلّت على إثرها منابع البترول، ورمت بالمجتمعات في هوة النزاعات المذهبية والطائفية، في محاولة لتقسيم أقاليم البلد الواحد وتفتيت وحدته، ولا تزال المنطقة غارقة في الأزمة الأمنية لحد الساعة، فكيف للسلام أن ينشر بالسلح؟ وقد بدت في نهاية سنة 2010 انطلاقا من تونس ما اصطلح عليه بثورات الربيع العربي وانتشرت في بعض الدول العربية كليبيا، مصر، سوريا، واليمن...، مخلفة الدمار والخراب في أرجائها، ولا تزال سوريا وليبيا تحت وقع انفجار القنابل، فأين هو هذا الربيع الذي يقتل شباب الأمة ويهدر طاقاتها ويستنزف ثروتها؟

ومن ناحية أخرى يتخذ الاختراق الناعم شكل الصراعات المستمرة والممتدة فقد عرفت المنطقة العربية ثلاثون صراعا مستمرا تجاوز الثلاثين عاما، وثمانية صراعات مستمرة لأكثر من عشرين عاما، وإحدى عشر صراعا مستمرا لأكثر من عشرة أعوام تقريبا ونحو ستة صراعات تجاوزت الخمسة أعوام، وستة وعشرون صراعا مستمرا لأكثر من

عام،<sup>1</sup> كما أدى تطور وسائل الإعلام والاتصال جراء الثورة الإلكترونية إلى إحالة العالم إلى علبة صغيرة تسري فيها المعلومات والقيم والأفكار، فصارت أداة فرض النموذج الغربي لا تستدعي الأسلحة إنما تستوجب استخدام الأفكار، وبالتالي توظيف المكاسب العلمية في التجارب الحياتية، إن لم نقل في التخطيط الاستراتيجي الشامل للمجتمعات العالمية، كمحاولة لهندسة قيمها بما يتوافق مع متطلبات العولمة والتي تعد جوهر الطرح الرأسمالي الإمبريالي، وتلك هي الأداة الفعالة للاختراق الناعم، فالواقع ينبئ عن حالة التخلف وضعف المسلمين وقابلية استضعافهم نظرا لفقدانهم لفاعليتهم الوجودية، فلم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث العالمية، بل صاروا أشبه لكيانات بدائية تتناحر بدعاوى مصطنعة وواهية، أو أقليات مستباحة لا تملك من أمرها شيء، ناهيك عن عمليات البرمجة العقلية التي تستهدف اللاوعي الجماعي وتتلاعب به بشتى الأساليب وعبر القنوات المختلفة حتى تتمكن من حياكة وعيه المصطنع.

لذلك بدا المسلم الذي نشأ وترى في ثنايا العالم الإسلامي كإنسان يحمل مخاوف داخلية وشكوك ذاتية، تخلق له عقلية التوجس وفق رؤية ضبابية كمن هو أعى تفقده ثقته بنفسه وبغيره، فترمي به في دوامة التيه للسير في طريق لم يكتشفه ولأهداف لم يحددها، وبقابليات متعددة للاستبداد والاستعباد والاستدمار من طرف الآخر، وهو في هذه الحالة يدرج في إستراتيجية الآخر القوي العارف بنفسه وبأهدافه، وبغيره ومطامحه، والمتحكم في مساره، فيستغله أحسن استغلال.

### ثالثا: من أجل انبعاث حضاري جديد للأمة الإسلامية

قدمت الحضارة العربية الإسلامية نموذجا رائدا ومنفردا عن نظام دولي قائم على كيان حضاري وثقافي مثلته الأمة، وبطريقة متفردة للحكم في جزء كبير من المعمورة يمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى المحيط الهادي شرقا، لأكثر من عشرة قرون، آخرها الخلافة العثمانية التي استمرت من بداية القرن الرابع عشر إلى عام 1922م، قدمت مستويات من الهدوء والإنجاز الثقافي الحضاري الذي لا يصدق بالنظر إلى واقع العالم الإسلامي الممزق حاليا، والذي يحتل مكانا جيواستراتيجيا جعله محط أطماع القوى العظمى على مر

1 - محمد عبد السلام، ما بعد الثورات: إدارة الصراعات الداخلية في المنطقة العربية، السياسة الدولية، عدد

189، يوليو 2012، ص 8.

التاريخ، فالأمة تشكل فضاء حضاريا كونيا في امتدادها الجغرافي التاريخي يصعب دراستها دراسة تفصيلية كاملة تعبر عن الصورة الجغرافية الراهنة بصورة دقيقة وكاملة، فليس سهلا عد المسلمين بدقة فمناطق العالم الإسلامي تعد من الأقاليم النمو السكاني السريع، وفي ذات الوقت تعرف حروبا حصدت الملايين من الضحايا، كما أن عدد الداخلين في الإسلام يرتفع يوميا، فالإسلام في تزايد مستمر وفي توسع ديناميكي مطرد بعيد المدى فهو أكثر الأديان نموا عدديا.<sup>1</sup>

ويعد الانتشار السريع للإسلام في المجتمعات الغربية ظاهرة حديثة، خلق إشكالا لدى الغرب تمحور في كيفية التخلي عن الحداثة والتوجه نحو الإسلام الذي يفتقر لهذه الحداثة، وليس له منجزات مادية تقارن بما عند الغرب، غير أن الثراء العقائدي في الإسلام هو الذي دفع الغربيين للدخول فيه واعتنافه، بالإضافة إلى ما يعاينه الغرب من إفلاس لحضارته في الجانب الروحي أثر على الإنسانية جمعاء، وغيرها من الأسباب التي دفعت كذلك بالعديد من المفكرين إلى التوجه نحو الإسلام كحل حضاري ذو مستوى كوني يمكن أن يجسد من خلال مشروع قابل للتطبيق.<sup>2</sup>

بالرغم من أن الأمة غائبة عن المسرح الحضاري العالمي كحاضر شاهد على الأمم إلا أنها حاضرة كمشهود مفتعل به، فهي في مرحلة الانحدار الحضاري وهو حالة طبيعية في دورة الحضارة وفي حياة الأمم، غير أن دوام الحال من المحال ذلك أن الأمة إما أن تتحلل وتضمحل في سياق غيرها من الأمم أو تستعيد نهضتها، بالاحتكام إلى سنن الخلق التي تتمثل أهمها في: سنة التغيير، وسنة التدافع، وسنة التداول، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وهو الحس الموجود لدى الأمة الإسلامية بضرورة تغيير واقعها المعاش نظرا لإمكانياتها التي تحوزها على كل المستويات.

رغم ما تجتازه الأمة من تجزئة وتفكك وتغريب وتبعية، إلا أنها تملك مقومات حضورها الكامنة في الكثافة السكانية بامتدادها الإقليمي، وعلاقتها الجاذبة لدول العالم الأفروآسيوي، كما تمتاز ببعدها العالمي في الانتشار في كل مكان، فضلا عن الفراغ

<sup>1</sup> - جمال حمدان، العالم الإسلامي المعاصر، عالم الكتب، القاهرة، 1971، ص 12.

<sup>2</sup> - زكي الميلاد، مقدمات في صياغة المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر، مجلة الكلمة، لبنان، العدد 7، ربيع

1995، ص 32.

الإيديولوجي السائد في العالم المعاصر<sup>1</sup>، فهي صاحبة الحضارات القديمة وأرض موطن الأديان، ومكمن الثروات، لا تزال تحتفظ بوحدتها الروحية، وبمقاومتها الحضارية ضد كل الاختراقات، والتي تعد عاملا جامعاً وأساسياً ومبدأً موحداً يجب أن يطبق في أي محاولة للتخطيط، فرغم وحدتها الروحية إلا أنها متعددة الجوانب تحوي عدة عوالم في قلبها الأمة العربية التي هي مركز الأمة الإسلامية، وتربط بين العالمين الإفريقي والآسيوي، ضمن دائرة عالمية تحوي أقليات مسلمة<sup>2</sup>.

وتعد الأمة العربية القلب النابض للأمة الإسلامية كونها تختص بخصوصية التجربة التاريخية وتميزها بالتنوع والإبداع، وخصوصية التجربة العقيدية والثقافية وغناها وتميزها، التي أثرت الإمكانات الحضارية، البشرية، المادية والإستراتيجية، وهو ما عمق الدوافع النفسية الاجتماعية والسياسية، للنهوض الحضاري لدى الأمة عامة، خاصة بعد الاختلالات العميقة التي أحدثها الاستعمار في موازين القوى العالمية<sup>3</sup>، وللتغيرات التي مست النظام الدولي بعد الحرب الباردة وأحداث الحادي عشر من سبتمبر والذي ولد تجزئة، تخلفاً وتبعية وفي ذات الوقت وعياً بمصير الأمة وضرورة تفعيل علاقاتها الخارجية نظراً لوحدها من ناحية وتعددتها من ناحية أخرى، فيبدو العالم الإسلامي ينسجم في جانبه الروحي ويتشعب في جانبه الدنيوي<sup>4</sup>.

إن الاختلاف والخلاف بين بني الإنسان طبيعة بشرية لا ينكرها أي عاقل، لكن الذي يعاب هو أن يجهل المرء حقيقة تاريخ حضارته وقيم ثقافته المستوحاة من دينه، ومن يختلف عنه من بني جلدته، فللمتقرب لحال المسلمين يجد أنهم يملكون مقومات روحية مصدرها الإسلام، وهو دين يحتوي كل العناصر الأساسية الباعثة على خلق حضارة، ومقومات مادية يزخر بها ظاهر الأرض وباطنها، وطاقة بشرية شبانية يتمناها الكثير من بني البشر والدول، فلا بد من الوعي بأساليب تفعيل هذه المقومات والسعي لإخراجها من نطاق

<sup>1</sup> - أماني غانم، مرجع سابق، ص 51.

<sup>2</sup> - مالك بن نبي، فكرة كمنوليث إسلامي، دار الفكر، دمشق، ط2، 2006، ص14.

<sup>3</sup> - الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار قرطبة، الجزائر، ط2، ص8.

<sup>4</sup> - مالك بن نبي، فكرة كمنوليث إسلامي، مرجع سابق، ص15.

الفكر إلى نطاق الممارسة والسلوك والعمل وتلك هي أساسيات الانبعاث والشهود الحضاري، وهو ما يكفل سد منافذ الاختراق في التعامل مع الآخر، بل والعمل على بناء علاقات بينية للأمة قائمة على التضامن والتكافل في إطار الأخوة الإسلامية، وعلاقات الندية الحضارية مع الآخر في إدارة الصراع الحضاري مع الغرب، وبتقديم البديل الحضاري للإنسانية.

إن العالم الإسلامي الذي يتكبد كيات انحطاطه الحضاري، واستغلاله من الآخر، وحتى يضمن بقاءه لا بد أن يُفَعِّل حضوره على كافة المستويات، بدءاً من المستوى المحلي نهايةً بالمستوى الكوني، وفي جميع المجالات، وهذا أمر لا يتم إن لم يحقق انبعاثه الحضاري، وهو ما يرغمه على تحدي النهوض والذي يستوجب رفع الأمة بمستواها إلى مستوى التحديات الحضارية الكونية التي يفرضها الوضع القائم، في إطار دور المسلم في إنقاذ نفسه وإنقاذ الآخرين وفق شروط الاقتناع والإقناع<sup>1</sup>، ورسالته العالمية التي تحيل من أمته أمة شاهدة على الأمم، فالشهادة تشترط الحضور، وتحدي الحضور لا يتأتى إن لم يكن هناك تفاعل مع الأحداث التاريخية التي تمس البشرية، بل ويفترض أن يكون كذلك صانعا للتاريخ،

### خاتمة:

في عالم تتفاوت فيه القوى وتتصارع تسعى فيه أمريكا للبقاء في قمته وبعظمتها، منتهجة لكافة الأساليب السلمية والعنفوية، في سبيل أمركة العالم باسم الحوكمة العالمية حتى لا تفلت خيوط شبكات النظام العالمي، وتسعى روسيا ومن ورائها الصين للوصول إلى قمة غدت حلما ممكن التحصيل رغم أنه بعيد المنال عنهما إن لم يتمكن من الظفر بخيوط شبكات النظام العالمي، المائلة في مؤسسات العولمة العابرة للقوميات، والتي أقحمت نظرياتها ونظمها وتجمعاتها البشرية في أزمات تعدت جوانبها السياسية، الأمنية، الاقتصادية والاجتماعية إلى أزمات أخلاقية، روحية، إيمانية، ووجودية وضعت الفطرة الإنسانية على حافة الهلاك، وبحكم الفوضى التي يعيشها العالم الذي اختلت توازناته، ونظرا للوضع الذي يعيشه المسلم من تخلف اغتراب وتبعية، وفي عالم يكيل له العدا، ويوجه إليه أصابع الاتهام بالتطرف والرجعية، ويحيك له الأفعال وردودها، توجب على

<sup>1</sup> - مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الربع الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، 1991، ص48.

الأمة الإسلامية تحمل مسؤوليتها الاستخلافية الحضارية تجاه الإنسانية، منقذة لنفسها ولغيرها من هلاك كوني محقق، ولا تتأتى هذه المهمة الجليلة إلا بوعي واقتناع وقدرة على التوعية والإقناع، وإدراك للإمكانات الكامنة والخاملة، البشرية، المادية والمعنوية، وإمام بالتحديات الراهنة والمستقبلية، التي تحتّم عليها إما البقاء أو الاندثار في فضاء حضاري يوجب على من يخوض معركته أن يعد ما استطاع له من العدة العلمية والعملية والفنية، وذلك لن يتأتى إلا بانتهاج مشروع حضاري يضمن لها عالميتها المستوحاة من رسالتها الحضارية، فتحدي بقاؤها يتطلب خوض الإنجاز الحضاري الذي هو مرهون بالوثبة والانبعث الحضاريين ولا يتأتيان إلا بنهضة تتوفر فيها الإرادة والإمكان الحضاريين، وبتقديم بديل عالمي يتجاوز تهديدات الممارسات الحضارية الراهنة، ويبعث التوازن في الإنسانية والطبيعة والكون من جديد.

## قائمة المراجع:

### أ- باللغة العربية:

- 1- بن نبي مالك، القضايا الكبرى، ترجمة: عمر مسقاوي، دار الفكر، بيروت، 2000.
- 2- بن نبي مالك، وجية العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، 2002.
- 3- بن نبي مالك، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر العربي، دمشق، 1986.
- 4- بن نبي مالك، فكرة كومونوليث إسلامي، دار الفكر، دمشق، ط2، 2006.
- 5- بن نبي مالك، شروط النهضة، ت: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986.
- 6- بن خلدون عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تقديم: علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، د.م.ن، 1966.
- 7- برغوث الطيب، محورية البعد الثقافي في استراتيجيات التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار قرطبة، الجزائر، ط2، دت ن.
- 8- هارون علي أحمد، حجر أافية الدول الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2005.
- 9- حمدان جمال، العالم الإسلامي المعاصر، عالم الكتب، القاهرة، 1971.
- 10- محمود مصطفى نادية، نحو مشروع للنهوض الحضاري من الفكر إلى الحركة، (في): مشروع النهوض الحضاري ونماذجه التطبيقية، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، منتدى النهضة والتواصل الحضاري، الخرطوم، الجزء الأول، 2011.

- 11- عبد الحي وليد، النظام الإقليمي العربي استراتيجية الاختراق وإعادة التشكل، في: أحمد سعيد نوفل وآخرون، التداعيات الجيوستراتيجية للثورات العربية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، فبراير 2014.
- 12- غانم أماني، الخريطة الإدراكية للنخب المسلمة لقضايا الأمة، في: النخب المسلمة وقضايا الأمة، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، ددن، دت ت.
- 13- الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي، المجلد الثالث، تيزي وزو 22\_10 يوليو 1973.
- 14- مزيان محمد، التوفيق بين الموروث الحضاري والتطلعات المستقبلية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة "ندوات"، مستقبل الهوية المغربية أمام التحديات المعاصرة، ندوة " لجنة القيم الروحية والفكرية" التابعة لأكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1998.
- 15- الميلاذ زكي، مقدمات في صياغة المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر، مجلة الكلمة، لبنان، العدد 7، ربيع 1995.
- 16- عبد السلام محمد، ما بعد الثورات: إدارة الصراعات الداخلية في المنطقة العربية، السياسة الدولية، عدد 189، يوليو 2012
- ب- باللغة الأجنبية:

- 17- James N.Rosenau, The Scientific Study of Foreign Policy, Rev. And enl. ed. Frances Pinter; Nichols Pub. Co. London; New York, 1980.
- 18- Carl Brown, International Politics and the Middle East: Old Rules, Dangerous Game, princeton studies on the Near East, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984.